الهولوكست: على شط العرب وفى خليج الفرس!

أنيس منصور

أكتوبر

شيئان يبعثان على الدهشة فى هذه الحرب بين العراق وإيران : كمية البترول التى أحرقت ، ثم اسم هذا الدين الذى ينتحله الطرفان ويتخذانه سببا لهذه الوحشية ! . .

ولذلك فنحن نتعجل نهاية هذه الحرب : أولا لأننا نريدها أن تنتهى فلا تنتشر بين دول إسلامية أخرى ، وثانيا لأننا نريد أن نعرف لماذا اشتعلت وما الذى تحقق لأى من الطرفين . .

ومن الواضح أن الاستعداد النفسى لهذه الحرب قديم . فالكراهية عميقة . والرغبة فى تسوية الحسابات قديمة ، وقد تأجلت منذ ١٤٠ عاما . وحاول الشاه ونجح . وجاء دور الإمام الخومينى ، ليعلن الجهاد على الأقلية السنية التى تحكم الأغلبية الشيعية فى العراق . فإن كان هذا هو السبب فالتاريخ الأوروبى قد عرف مثل هذه الحروب مئات السنين بين الكاثوليك والبروتستانت ولا يزال فى ايرلندا ، وبين الكاثوليك والإصلاحيين فى فرنسا ، وبين المسلمين والمسيحيين فى الحروب الصليبية ، وأخيرا فى لبنان ، وفى القلبين ، وبين المسلمين واليهود فى الشرق الأوسط .

وإذا كان المقصود بالحروب الصليبية هو الحروب الدينية ، فما تزال الحروب الصليبية ممتدة ، وهى الآن يمكن تسميتها بالحروب الهلالية – أى الحروب بين المسلمين . . ثم هى الحروب بين الصليب والهلال والمنجل والمطرقة . وكل الحروب ، أيا كان المذهب الذى تدعو إليه أو تدافع عنه ، هى حروب دينية – أو لها طعم الدين وحماسته ، وضحاياه يسمونهم بالشهداء فى سبيل « الله » ؟ ! . .

وإذا دلت هذه الحرب على شىء جديد ، فإنها تؤكد لنا أن النزاع العربى الإسرائيلى ليس هو « النزاع » إنما هو نزاع – أى واحد من نزاعات عديدة فى مقدمتها النزاع العربى – العربى ، أى بين العرب مسلمين ومسيحيين . . ابتداء من نزاع العراق وسوريا ، أبناء المذهب البعثى الواحد ، إلى النزاع بين الجزائر الجمهورية والمغرب الملكية ، وبين البوليساريو الثورية ، وبين ليبيا الجماهيرية وتونس البورقيبية وبين اليمن واليمن . . الخ . .

❁❁❁

فهل معنى ذلك أن العراق كان لابد أن يجد سببا لنزاع مع جار من جيرانه . . فلما لم يستطع الآن أن ينازع سوريا . فقد أجل هذا النزاع . ولذلك بادرت سوريا بالتعاهد مع الاتحاد السوفيتى عشرين عاما . . هل كان الرئيس صدام حسين التكريتى يستعد لمؤتمر عدم الانحياز فى بغداد سنة ١٩٨٢ ، بأن يحقق لنفسه نصرا عظيما على أقوى جيرانه ، فإذا نجح أصبح العراق سيد الخليج . وبذلك يكون صدام البديل عن الشاه وخليفة نهرو وصلاح الدين التكريتى ؟ . .

لقد حاول الرئيس صدام حسين أن يستميل قلوب وعقول وجيوب دول أفريقية كثيرة . فأرسل وفودا عديدة إلى أفريقيا وآسيا . . وأنفق فى دول عدم الانحياز وحدها ٨٥٠ مليون دولار . .

هل كان الإمام الخومينى ينتظر هو الآخر هذه اللحظة ليسوى حسابا قديما مع حكومة العراق التى طردته وساهمت فى اغتيال ابنه مصطفى وأسلمته لفرنسا ونجست عليه لحساب الشاه ؟ . إن حرب إيران مع العراق هى « جهاد

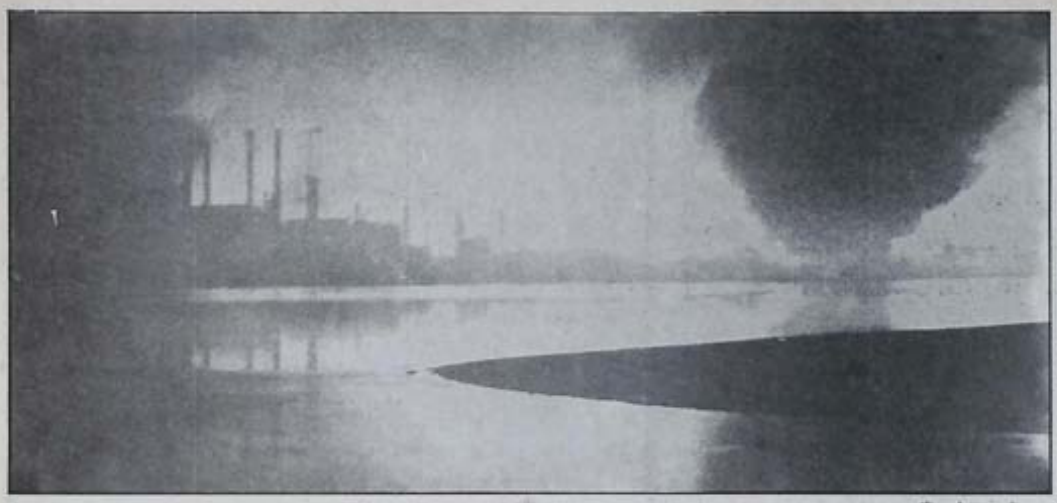

▲ الامام الخميني . . ونار في خليج الفرس

مقدس » وشهداء هذه الحرب قد وعدهم الإمام بالجنة تجرى من تحتها الدجلة والفرات وشط العرب . . إن هذه الحرب قد أنقذت الإمام الخوميني . . فقد تربع الإمام على عرش الطاووس فكان صورة مطابقة للشاهنشاه مع فارق واحد هو انه ارتدى ملابس الحداد . وقد أدت هذه الحرب إلى توحيد الشعب الايراني في دفاعه عن أرضه وعرضه وراء الإمام الخوميني – المهدى المنتظر أو المهدى المنتصر . .

ولابد من أن يقال هنا وبسرعة إن الحرب ماتزال مستمرة . وهذه جملة ليست اعتراضية ، إنما جملة ضرورية . لكي يؤكد الكاتب للقارىء أنه لا يستطيع أن يعرف بالضبط ماذا حدث . فقد يجيء شيء يغير اتجاه الحرب . ولكن الذى يرسم سير القتال يجده مثل موج البحر هادرا رتيبًا : موجات تروح ، وموجات ترتد، ورذاذ البترول يشتعل وينعقد سحابا في سماء البلدين . .

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى جعل العراق يتأخر، وهو البادىء بالقتال – في توجيه الضربة الأولى . وفي حساب العسكريين أن الضربة الأولى هي نصف النصر – أو نصف المعركة . ولا أحد يعرف أيضا أين كانت إيران تخفي استعدادها الكامل بطائرات الفانتوم ذات الضربات المحددة الدقيقة . .

إن العراق قد اعتمد على عقيدة عسكرية ترى أنه لابد من استخدام قوات صغيرة مركزة في الهجوم . وأهم أهداف هذه القوات هو أن تضرب دون أن توجع . ولكن تقوم بتشتيت القوات الايرانية « المزقة » – أو كان من المعتقد أنها كذلك . .

ولقد لجأ العراق إلى هذا الاسلوب لأن معظم قواته موجودة في مواجهة سوريا ، وفي مواجهة الأكراد . ومعنى ذلك أن العراق هو الذى اختار الوقت والمكان وحجم القوات الضاربة أو اساء الاختيار !

وكل هذا يؤكد لنا أن العراق لم تكن لديه معلومات صحيحة عن أقوى جيرانه . . واعتمادا على هذه المعلومات الخاطئة ، أو الغرور الشديد ، أشعل حربا لم يدرس كيف تكون بدايتها ، ولا يعرف الآن كيف تكون نهايتها . . فنهاية الحرب في يدى الإمام الخوميني . وليس على العراق إلا أن يندم على ما فعل . والعراق لا يعرف الندم . فهم في العراق عندما يعاقبون أحدا لا يعطونه وقتا كافيا للندم . ثم إن المهزوم لا يحيلونه إلى المعاش عادة ، إنما يبعثون به إلى الآخرة ! . .

أما الجيش الايراني فيبدو أن عددا كبيرا من ضباطه الكبار قد أحيلوا إلى المعاش وإلى السجون وإلى المشنقة أو هربوا إلى العراق ليحاربوا بقوات شيعية أشقاءهم الشيعة في إيران .

وقد تأكد أخيرا ما تصورته في الأسبوع الماضي ، من أن الخوميني ينفذ خطة كان قد وضعها الشاه لضرب العراق . . وتأكد مرة أخرى ما تصورته في الأسبوع الماضي أيضا من أن ليبيا تدفع ثمن قطع الغيار التي تتلقاها إيران من تركيا أو من باكستان . ولكن معلوماتنا التاريخية البسيطة تقول : إن السلاح شيء والمقاتل شيء آخر . . فقد يتوافر السلاح ولا يتوافر المقاتلون كما هو الحال في ليبيا . . وقد يكون هناك مقاتلون ولا يوجد سلاح أو ذخيرة كما هو الحال في إيران . . أو يوجد السلاح والرجال ولا يكون قتال كما هو الحال في العراق الذى لم تتدرب قواته ولم تستعد لهذه المعركة ! . .

ونحن الآن أمام جيشين متحاربين ليسا على درجة عالية من التدريب أو الكفاءة القتالية . ولذلك يمكن أن نصف حرب العراق وإيران بالحرب « المتخلفة » . . ومهما كانت الأسباب التي أدت إلى هذا التخلف في إيران أو العراق ، فإن القتال الذى نراه يؤكد أننا أمام جيشين لا يحسنان التخطيط أو القتال . وأن هذه الحرب تضعنا أمام جريمة عالمية – جريمة بيع الدول الكبرى للسلاح ، تجارة السلاح الغالية الثمن . وأنه لا توجد أى ضوابط أو روابط لاستخدام هذا السلاح . .

وهذا يضعنا أمام مشكلة أخرى سياسية أو فلسفية وهي أنه لا معنى لكلمات كثيرة في القاموس السياسي مثل : الحياد . . والحرب . . والوفاق . . فهل يمكن أن توصف الدول الكبرى تاجرة السلاح بأنها على الحياد من هذا القتال . . فالسلاح العراقي : سوفيتي فرنسي والسلاح الايراني : أمريكي بريطاني . . هل الولايات المتحدة بأسطولها عند مدخل مضيق هرمز ، على الحياد ؟ هل إرسالها لأربع طائرات إنذار مبكر ، من ١٩ طائرة تملكها ، إلى سماء السعودية ، مع أطقم من قواتها وألوف من رجالها ، يعتبر حيادا أو هو حياد مسلح ؟ هل إرسال السوفيت لأسلحة من ليبيا إلى إيران أو تهريب أسلحة إليها من أفغانستان يعتبر حيادا ؟ هل معاهدة السوفيت مع سوريا ضد العراق ومع ليبيا ضد مصر ، حصار سلام ، أو هو حصار حرب ؟ . .

واذا كان هذا هو الوفاق بين أمريكا وروسيا ، فما هو الفرق بينه وبين الاتفاق على الحرب أو الاتفاق على عدم تصعيد أحد غيرهما للموقف حتى لا تكون حرب ؟ ثم ما الذى تخاف عليه روسيا وأمريكا في المنطقة ؟ . .

إن الجميع يرتدى عباءة الحياد ، بما في ذلك الدول العربية أيضا التي تؤيد العراق سرا – تؤيد العراق خوفا منه ، وتؤيده سرا خوفا من إيران . . وعندما

الهولوكست: على شط العرب وفى خليج الفرس!

حاول الملك حسين أن « يهوش » بتأييده للعراق ، حذرته الدول الكبرى أن يذهب إلى أطول من ذراعه . وأحس الملك حسين أنه حقق ما أراد . فقد كان حسن النية ! . ثم منعته الدول العظمى أن يذهب خطوة واحدة بعد ذلك ! . .

وسوريا أيدت إيران وأتت لها بالاتحاد السوفيتى على حدود العراق ! . .

حتى القوة التى وعدت أمريكا بأن تضعها فى المنطقة لتكون جاهزة لأية حرب مفاجئة . هذه القوة التى سميت « قوة الانتشار السريع المفاجىء » لن تعمل إلا فى سنة ١٩٨٢ ! ! . .

وبريطانيا بعثت بإحدى المدمرات ، وسوف تلحق بها قطع من الأسطول المساعدة ، وأكدت أن هذه القوة ليست جزءا من الأسطول الأمريكى . إنما فقط جاءت لحماية ناقلات البترول البريطانية عند مضيق هرمز . .

أما هذا المضيق فقد بالغت الدول الغربية فى إمكانية سده أو إغلاقه فلا يمر منه ١٤ مليون برميل يوميا – أى ما يعادل ٤٠ ٪ من احتياجات العالم الغربى كله ، وذلك بمعدل ناقلة واحدة كل ٢٤ دقيقة ! . .

والمضيق ليس ضيقا – فاتساعه يتراوح بين ٣٥ ميلا و٧٠ ميلا . ثم إن المجرى المائى للسفن عرضه خمسة أميال ! ولا يمكن تعطيل الملاحة فى هذا المضيق بهذه السهولة التى صوروها للعالم كله . . بل لو ضربت إحدى الناقلات وغرقت فإنها تشبه حية سمسم عندما تقف فى حلق أى واحد منا ! . .

ج ج ج

وقد التزمت الدول الغربية والعربية أيضا موقفا متشابها هو : انظر وانتظر !

. . ونظر العالم للحرب وانتظر أن تنتهى . فقد طالت أكثر مما توقعنا !

ولذلك عدلت الدول كلها عن هذه النظرية إلى نظرية أخرى هى : افعل قليلا ولكن أخيرا ! . .

ولا توجد دولة واحدة لم تفعل قليلا بالدعوة والصلاة والنصح أو بالتأييد التليفونى كما فعل جلالة الملك خالد ، أو التأييد التليفزيونى كما فعل جلالة الملك حسين . . أو بالاستعداد الفعلى لإعطاء أمريكا تسهيلات عسكرية أرضية وجوية وبحرية كما فعلت مصر ، أو بانهازية كما فعلت سوريا التى أتت بالسوفيت على حدود العراق ، ولحماية الحكومة من الشعب السورى أو لإدخال روسيا مرة أخرى لتكون طرفا فى النزاع مع إسرائيل ، وبذلك تعطل حل المشكلة الفلسطينية بعد إتمام الانسحاب من سيناء ، وعندما تكون أمريكا جاهزة بقواتها الجديدة فى المنطقة للقيام بأى عمل عسكرى – هذا إذا جاء ريجان إلى البيت الأبيض ! . .

وإذا كان من الضرورى نفسيا ، استعجال نهاية هذه الحرب خوفا من نتائجها القادحة على الطرفين ، فإن هناك نتائج أخرى قد ظهرت بسرعة : موت الألوف من اللاجئين الجياع فى الصومال . فقد انقطعت عنهم المياه التى تنقلها السيارات التى لا تجد الوقود ، وليست هذه إلا نتيجة خاطفة – خاطفة لشربة الماء والرغيف من ضحايا الحرب بين الصومال بقواعدها الأمريكية وبين أثيوبيا التى هى قاعدة سوفيتية ! . .

ثم إن دولا أفريقية وعربية كانت تتلقى دعما من العراق ، لن تحصل عليه لا هذا العام ولا الأعوام القادمة ! . .

أما الدول الغربية التى أقامت المصانع والمشاريع الضخمة – وفى مقدمتها فرنسا – فسوف تستأنف عملها ، وسوف تفى بعقودها . وسوف يعود الستة الآلاف خبير فرنسى وألمانى وإيطالى الذين هربوا إلى عمان . وسوف تكسب الدول الغربية من هذه الحرب ، بناء ما انهدم من أرصفة شحن البترول ومحطات الضخ والكهرباء والأنابيب والمفاعلات النووية . .

ومن نتائج الحرب أن السعودية والكويت قد ضاعفتا ضخ كميات البترول تعويضا للغرب عن الذى فقده باحتراق آبار إيران والعراق . وهذا قرار حكيم من شأنه أن يؤجل التدخل الأمريكى والأوربى فى الشرق الأوسط ، وألا ترتفع أسعار السلع فى العالم ، ويكون ضحيتها الأولى : العالم الثالث كله ! . .

ج ج ج

هل نتفلسف مادمنا لانعرف بوضوح ماذا يحدث ، أو لأننا نريد أن نعرف :

هل الشعوب مثل البشر أيضا ؟ : فطعام الغنى يحتاج إلى معدة ، ومعدة الفقير تحتاج إلى طعام ؟ . .

إن إيران والعراق غنيان وعندهما الطعام وعندهما المعدة ، فما الذى ينقص الاثنين ؟ تنقصها : القوة ، السيادة ، السيطرة ، الزعامة . . ومن أجل الزعامة يجوع القوى . وذلك بأن يقضى على معدته ، أو يقضى على طعامه ! . .

وبذلك يعيش الغنى كما لو كان فقيرا . . فهو يجد الطعام ويجد المعدة ولكن يضحى بالاثنين معا من أجل أن يكون أطول قامة وأطول ذراعا . .

كأنه مكتوب على الشعوب الغنية أن تعيش فى معدل واحد . . يكون لديها المال وتبدده ، وتحرم شعبها منه . . وعندما نحلم بالمستقبل تنسى أن يكون لها حاضر . .

والفراعنة أقاموا الأهرامات ، وبددوا طاقات الشعب وأمواله على بنائها . . والأهرامات الحديثة هى سفن الفضاء التى يطلقها الأمريكان والروس فتبتعد عن الأرض وتحرق معها ألوف الملايين من الدولارات ، ولكن الناس بأحلامهم وطموحهم وحبهم للسيادة ، ينسون ماتتكلفه هذه اللعب العلمية المتطورة . . ويحلم الأمريكان والروس بتصعيد خلافاتهم الأبدية إلى الكواكب الأخرى . . وينسون أن ينفقوا ملايين ملايينهم على أنفسهم أو على الشعوب الفقيرة فى العالم كله . .

ثم نموذج صغير جدا : ليبيا . . من أغنى دول العالم . ولو وزعت عائداتها من البترول على شعبها ، لامتلك كل واحد عمارة ارتفاعها ثلاثون طابقا . . وأقام هو فى الطابق الأخير على مسافة أمتار من طائرته الهيلوكوبتر وحمام سباحة وحديقة معلقة ! . .

ولكن نحن نعرف أين تذهب أموال ليبيا ؟ . ومهما كان السبب الذى يقال لأصحاب المصالح الحقيقية فى ليبيا ، فالنتيجة هى أن الأموال تخرج من ليبيا ولاتعود . . وسوف تزداد ليبيا وايران والعراق وأمريكا وروسيا وغيرها ثراء وفى نفس الوقت سوف تتسرب هذه الأموال إلى كل أرض أوكل كوكب .

كأنه مكتوب على الشعوب الغنية أن تعيش دون المستوى الذى تقدر عليه . .

وماتزال المعارك مستمرة ، حتى كتابة هذه السطور فى حرب ليس فيها نصر أو هزيمة . . فهى حرب : « لانصر ولاهزيمة » !

وإذا كنا نروى النكتة التى تقول ، إن أسدين ظل ينهش الواحد منهما الآخر حتى لم يبق إلا ذيلاهما ، على أنها شئ لامعقول ، وهى لذلك تبعثنا على الضحك فإن مايحدث فى إيران والعراق هو شئ من ذلك . أو إن هذا بالضبط ما يتمناه كل الواقفين على الحياد – أو الواجفين من الحياد من الدول الغربية ودول الخليج . .

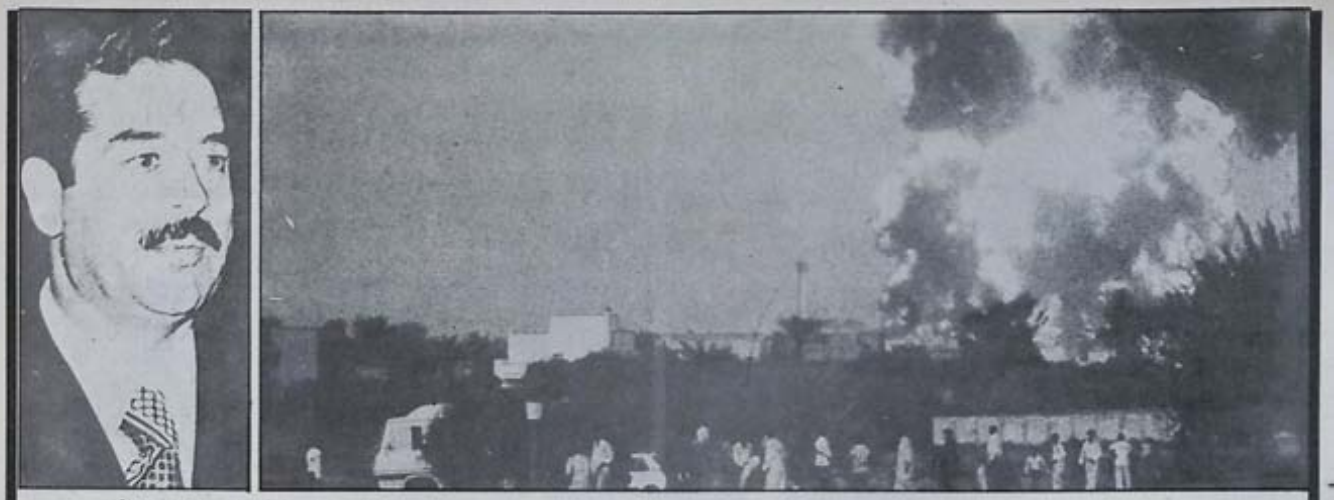

صدام حسين .. ونار على شط العرب ▲

ولكن حتى هذا لن يتحقق قبل أن يتبدد كثير من الذهب على اختلاف ألوانه . .

الذهب الأسود : البترول .

والذهب الأحمر : الدم . .

والذهب الأخضر: الدولار . .

كل ذلك سوف يدفن تحت شط العرب وخليج الفرس ! . .

ج ج ج

وسوف تمضى إذاعة بغداد وإذاعة طهران فى ترديد نشيد مصر يوم العدوان الثلاثى : الله أكبر . . الله أكبر فوق كيد المعتدى . .

والله للمظلوم خير مؤيد . .

فكأن هذه المذابح قد تمت باسم الله – كذبوا ! . .

بل إنهم يحرفون كلام الله . .

فالله عندما قال لنا :

« فصل لربك وانحر » قد قصد بذلك أن نصلى عيد الأضحى وبعد ذلك نذبح الخراف . . ولكنهم فى إيران والعراق منعوا شعوبهم من أداء فريضة الحج ، ومنعوا الاحتفال بالعيد . . ولذلك فبدلا من الصلاة وذبح الضحية ، فإنهم يصلون ويذبحون أنفسهم – بئسما فعلوا باسم الدين ، وتجنيا عليه ! .

ج ج ج

وفى الأساطير العراقية القديمة كان ذلك البطل قلقامش ، الذى ارتفع من الأرض إلى السماء فى سفينة فضاء أسطورية . . ورأى الدجلة والفرات ورأى الشريط الزراعى الأخضر . . ولو عاد قلقامش اليوم وارتفع عن الأرض ، إن استطاع ، فماذا يجد ؟ . .

يجد النار تأكل النار التى تأكل البشر ، فلا تفرق بين شيعى إيرانى وشيعى عراقى . . وبين سنى عربى وسنى كردى . .

ولا نجد كلمة تسعفنا فى وصف هذا الذى يحدث فى البلدين إلا كلمة « هولوكست » – وهى كلمة نستعيرها من التاريخ اليهودى . و « هولو – كوست » كلمتان يونانيتان معناهما : الحريق الشامل . . أو النار للجميع . . أو الجميع فى النار . . وقد أطلقها اليهود على النازيين الذين أحرقوهم هم وغيرهم من معارضى هتلر فى غرف الغاز ، فهم مسيحيون أحرقوا اليهود ، ولكن الهولوكست الجديد هو إحراق المسلمين للمسلمين فى مستودعات الغاز باسم الله الرحمن الرحيم ! . .

لقد كان دستوفيسكى الأديب الروسى العظيم يقول : إذا لم يكن هناك إله ، فكل شئ جائز ! . .

ولو عاش الأديب الروسى لتغيرت عبارته ليقول : بل إذا كان هناك إله أيضا ! . .

ج ج ج

وقد افتضح أمر العالم كله أمام هذه الحرب . .

فلا أحد يريدها أن تنتهى ، فأية نهاية لواحد من الطرفين ، أولهما معا ، لن تكون درسا موجعا ، ورادعا قويا فى المستقبل . ولذلك فالعالم كله يتفرج : يظهر الأسف ويخفى الشماتة . . وكل طرف يقول : إن الطرف الآخر هو السبب . .

وليس شيئا مريحا أن نقول : بل هما معا . فهذا عدل كاذب ! . .

ج ج ج

أذكر أن الزعيم التركى دنكتاش قد دعانى إلى الغداء فى الجانب التركى من قبرص . . وفى المطعم الذى أحلى تماما وجدت ذبابة . فقلت : أين النظافة التركية المشهورة . . فأجاب بسرعة : إنها جاءت من القطاع اليونانى من الجزيرة !

وضحكنا . ولما نقلت هذه النكتة إلى القبارصة اليونانيين قالوا : صحيح انها ذبابة يونانية هربت من النظافة واتجهت إلى القذارة عندهم ! . .

وضحكنا . وبقيت الذبابة نكتة حية . فلم يحاول أحد أن يقتلها ! . .

وكذلك التهمة التى تقول : إن إيران هى السبب ، أو العراق هى السبب، ظلت طائرة تروح وتجئ ، دون أن يحاول أحد أن يوقفها أو يقضى عليها . والعالم كله يضع عينا على البترول وعينا على القرآن . . وهو يخشى إن تدخل ليحمى الآبار ، اصطدم بالمسلمين فى كل مكان .

ولذلك يجب أن ينهش الأسدان كل منهما الآخر ، حتى يتبقى ذيل كل منهما أى حتى يصبح المستحيل ممكنا .

ولاتزال المعارك مستمرة . . الله أكبر . . الله أكبر ! فوق كيد المعتدين . . . وبعض المحايدين ! . . □